نثار الأخبار عن آل نافع الأنصار /مرتضى الأنصاري من ص ١٥٥-١٦٤

من ملامح ودلالات امتداد العمق الأندلسي عند آل نافع الأنصاري وغيرهم من الأندلسيين الذين استقروا في شمال إفريقيا

لعب المورسكيون –مسلمو الأندلس المُهَجّرون– دورا محوريا في إثراء عمق الصحراء الكبرى،حيث نقلوا مهاراتهم المتطورة في الزراعة ،وصناعة الحلي والمعادن،وبعض الأدوات المعدنية،والخشبية المستعملة، إلى جانب العمارة والنسيج، كما شكلوا رافدا فكريا وعلميا بارزا عبر إحياء العلوم الشرعية،واللغوية،والمعمارية،وتركوا بصمات في العادات الاجتماعية واللغوية لا تزال ماثلة في المنطقة .

ويُمثل العمق الأندلسي لدى مجتمع "البيضان" في الصحراء الكبرى امتدادا من موريتانيا إلى جنوب المغرب وجنوب غرب الجزائر، جذرا حضاريا وتاريخيا متأصلا وليس مجرد إرث عابر، ويتجلى هذا العمق عبر الهجرات العلمية المتبادلة، والتشابه في النسق الاجتماعي والقبلي، بالإضافة إلى الامتداد اللغوي والأدبي،ومن تلك الملامح والدلالات لهذا العمق الأندلسي،والمغاربي،لدى المجتمع الصحراوي عامة ،وآل نافع خاصة،ومن يماثلهم في الحال من قبائل الصحراء،ويتجلى تأثيرهم العلمي،والحضاري ،والثقافي في المنطقة من خلال عدة ملامح رئيسية منها:

١–التواصل العلمي والفقهي (جسر العدوتين)

لعبت الرحلات العلمية بين علماء الأندلس وبلاد المغرب والصحراء الكبرى دورا كبيرا في التأسيس العلمي، وقد أسهم فقهاء الأندلس المهاجرون إلى الصحراء في نشر العلوم الشرعية،وقواعد اللغة العربية وآدابها،وقواعد الفقه المالكي، والتصوف السني، مما جعل الصحراء تمتد فكرياً في عمق الحواضر الأندلسية،والمغاربية.

٢– البنية القبلية والنسق الاجتماعي

يتشارك مجتمع البيضان مع المجتمع الأندلسي والمغاربي في جذور وبنيات قبلية متماثلة. وكما كانت القبائل العربية والبربرية في الأندلس تعتز بأصولها وتماسكها،

ظل المجتمع البيضاني الصحراوي ينظم نفسه وفق أعراف وتقسيمات قبلية دقيقة تقوم على النسب والحماية، بل وتداخلت التركيبة السكانية الصحراوية مع هجرات القبائل العربية ،كالهجرة الحسانية لبني معقل،وهجرة قبائل الأنصار والأشراف.. التي كانت وثيقة الصلة بحواضر المغرب الكبير والأندلس.

٣-الفنون والأدب واللغة

الشعر والأدب :ينحدر الأدب الصحراوي (دواوين الشعر ،والأدب،والبلاغة) من عمق الإرث اللغوي والأدبي في العصر الجاهلي،والأندلسي والمغاربي؛ حيث يظهر جليا تأثر الأدب الصحراوي بشعر شعراء المعلقات والعصر الجاهلي، والموشحات الأندلسية،والمقامات.

٤-الزي والمظاهر :تعكس الأزياء التقليدية لدى البيضان، مثل "الدراعة "للرجال و"الملحفة" للنساء، ارتباطا وثيقا بأساليب اللباس التي تطورت في الغرب الإسلامي، حيث كان للمغاربة والأندلسيين لمساتهم الخاصة في هندامهم وعمائمهم التي انتقلت إلى مناطق الصحراء الكبرى.

٥-كان للرحلات العلمية دور مهم في نقل الثقافة والأدب،وشكلت شريان الحياة العلمية والفكرية والثقافية،بين حواضر الأندلس والجزائر والمغرب وتونس،ومناطق الصحراء الكبرى،والذي نقل الحضارة الأندلسية بمختلف أبعادها الفقهية، واللغوية، والعقائدية،والمعمارية إلى مجتمع الصحراء الكبرى، وقد تم هذا الانتقال عبر مسارين رئيسين :رحلات علماء الأندلس جنوباً والاستقرار في الصحراء، ورحلة أبناء الصحراء شمالاً للتزود من منارات قرطبة وغرناطة،وفاس،ومراكش،وتلمسان،

وقرطاج،وليبيا ،والقاهرة.

ومن نتائج تلك الرحلات وآثارها،تأسيس النواة التعليمية الأولى (المحاضر)،كما أسهمت هذه الرحلات في محاكاة المناهج التعليمية الأندلسية،والمغاربية؛ حيث نُقلت

المتون، والشروح، وطرق الإجازة العلمية لتصبح الركيزة الأساسية لنظام المحاضر الصحراوية.

كما ساهمت في نقل وتوطين المذهب المالكي ،واعتمد علماء الصحراء الكبرى كتب المذهب المالكي التي نُقحت واعتُمدت في الأندلس،والمغرب الإسلامي، مثل موطأ الإمام مالك بشروح أندلسية، ومدونة سحنون، ولاحقا مختصر خليل كمرجعية أولى للقضاء والفتوى،وكتاب الشفا للقاضي عياض،في السيرة النبوية الشريفة،وكتاب الرسالة لابن أزيد القيرواني في العقيدة السلفية.

كما كان للأندلسيين والمغاربة دور في تأصيل علوم اللغة والأدب،وحملوا معهم أمهات كتب اللغة مثل القاموس المحيط، ودواوين الشعراء الجاهليين والأندلسيين، والموشحات،والمقامات؛ مما أوجد بيئة صحراوية قادرة على محاكاة الفصاحة الأندلسية وبلاغتها في نظم الشعر والرسائل،وهو أمر غير معهود في البيئات البدوية.

وكان الفضل في ذلك –بعد الله– إنما يعود للعلماء الذين تنقلوا بين الحواضر الأندلسية والمغرب الإسلامي،وبين الصحراء الكبرى،وخاصة علماء إقليم توات وأدرار بجنوب الجزائر ،وكانت جسرا ومحطة رئيسة من محطات قوافل الحج ،والتجارة، القادمة من الأندلس والمغرب الإسلامي (تونس–الجزائر–المغرب) والمتجهة إلى عمق الصحراء ،وإفريقيا،وعاصمتها مدينة تمبكتو التاريخية.

وتعد الكتب والمخطوطات حينها من أهم ما يُجلب،ويباع ،ويقتنى في أسواق مدن الصحراء الكبرى مثل: أدرار ،توات ، تمبكتو،أروان،ولاتة،جنى.

وقد استقطبت المنطقة العديد من العائلات العلمية الأندلسية،التي فرت بدينها بعد سقوط غرناطة؛ مثل أسرة الشيخ الرباني أبوبكر التواتي الأنصاري الخزرجي،دفين مدينة عين صالح،وسلالته من بعده،من ذرية الإمام والسلطان نافع الأنصاري الخزرجي، وبعض العائلات الفقهية التي استقرت في قصور توات.

وقد أسس هؤلاء العلماء مدارس فقهية نقلت الخط الأندلسي (المغربي)، وطرق نسخ المخطوطات،وصناعة المكتبات التي لا تزال خزائن أدرار،وتوات،وتمبكتو تحتفظ بالآلاف منها إلى اليوم.

وكان لبعض علماء المالكية أثر مبارك،وممتد إلى أعماق الصحراء الكبرى،وخير مثال لهم على سبيل التمثيل فقط لا الحصر :

أ-القاضي عياض ،وكتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، رغم أن القاضي عياض مستقره في سبتة ومراكش، إلا أن تأثيره العلمي عبر تلاميذه ورحلاتهم كان كبيرا ومشهودا في عمق الصحراء وعلمائها،وتباروا في حفظه،واعتنوا بتدريسه،وشرحه،واختصاره،واعتبروه الكتاب الروحي الثاني بعد كتاب الله،ونقلوا عبره السيرة النبوية الشريفة بروح مغاربية أندلسية.

ب-ابن أبي زيد القيرواني،المسمى(مالك الصغير)،وكتابة: الرسالة لابن أبي زيد القيرواني،وكانت رسالته من المناهج والمقررات الدراسية الأصلية في العقيدة،وقد اعتنى بها علماء الصحراء،حفظا،وشرحا،واختصارا،وتعد مرجعا في العقيدة السلفية.

ج- خليل بن إسحاق الجندي المصري،وكتابه مختصر خليل في الفقه المالكي،ولم يكن أندلسيا،لكنه دليل على أن منطقة الصحراء الكبرى،حاضنة للعلم والعلماء والكتب والمخطوطات،من المشرق والمغرب،لكن تأثير العدوة الأندلسية وملامحها أكثر وضوحا وبروزا وتأثيرا من غيرها.

د-الشاعر والمهندس المعماري أبو إسحاق إبراهيم الساحلي الأنصاري المعروف ب:"الطويجن" والذي كان أول من أدخل الفن المعماري الأندلسي إلى غرب إفريقيا،من خلال اتصاله بالملك منسى موسى ملك الذهب المشهور بحجه،الذي ضم الكثير من القوافل المحملة بالرجال وأطنان من الذهب،من تمبكتو إلى مكة،ومن مكة تعرف عليه وتعاقد معه،وعاد معه إلى تمبكتو،فخطط قصر الملك ومجالسة،والجامع الكبير،وبناها كلها في مدينة تمبكتو جوهرة الصحراء، وعاصمة الذهب، والعلم

والعلماء والكتب والمخطوطات في حينه،وكان الملك منسى موسى معجبا جدا بمواهبه،فاختص به لنفسه،واندثرت آثار البيوت والقصور ،وبقي الجامع شامخا في تمبكتو إلى يومنا هذا بعمارته الأندلسية، شاهدا على إنجازات وآثار الأندلسيين في غرب إفريقيا،ودورهم في ازدهار الحركة العلمية،والحضارية،والمعمارية،والثقافية والفكرية في مدينة تمبكتو في القرن الرابع عشر الميلادي .

وكان لبعض العلماء دور في نشر الطريقتين الصوفيتين:التيجانية،والقادرية ،وقد اقترن تدريسهما،بتدريس علوم الشريعة واللغة، والمزج في تعليمهما بين الزهد الصحراوي والتنظيم العلمي المنبثق من مدارس المواعظ والتصوف السني الذي ازدهر في الأندلس والمغرب.

لعب المورسكيون (مسلمو الأندلس المهجرون) دورا محوريا في إثراء عمق الصحراء الكبرى .نقلوا مهاراتهم المتطورة في الزراعة المروية (الخطارات)، وصناعة الحلي والمعادن، إلى جانب العمارة والنسيج. كما شكلوا رافداً فكرياً وعلمياً بارزاً عبر إحياء العلوم الإسلامية، وتركوا بصمات في العادات الاجتماعية واللغوية لا تزال ماثلة في المنطقة .

٦-الزراعة

نقل المورسكيون ببراعتهم الهندسية نظام "الخطارات" أو "الفلاجة" لجلب المياه الجوفية من أعماق الصحراء إلى الواحات. أسهم هذا النظام في استصلاح مساحات شاسعة وتطوير زراعة النخيل والأشجار المثمرة في مناطق جافة.

كما أدخلوا نظام الزراعة المكثفة،وأساليب زراعية متطورة شملت تحسين طرق الري واستخدام الأسمدة، مما عزز من الاكتفاء الذاتي للعديد من المجتمعات الصحراوية في مسارات الهجرة التاريخية.

٧-الصناعة والحرف اليدوية

صناعة الحلي والفضة :اشتهرت عائلات مورسكية من الصناع والحدادين والنجارين بمهارتها العالية في صياغة الفضة والنحاس،والأدوات الخشبية،والمعدنية من الحلي،والأسلحة البيضاء ،والأواني،وأدوات جلب الماء من الآبار العميقة،وصناعة الجلود،والخيام الجلدية..إلخ ونقلت تقنيات النقش والصقل الأندلسية التي أصبحت لاحقا جزءا من التراث الحرفي الصحراوي،وتجد فرقا شاسعا بين صناعاتهم التقليدية،وبين صناعات غيرهم،وسمتها البدائية.

كما برعوا في ترك بصمات فنية على صناعة النسيج والخياطة،وساهموا في تطوير أساليب دقيقة في نسج الصوف والوبر والجلود، ونقلوا فنون التطريز التي أثرت على الأزياء المحلية التقليدية.

وامتد تأثرهم حتى على العمارة الصحراوية؛حيث تأثرت أنماط البناء في بعض القصور والمدن التاريخية المتاخمة للصحراء باللمسات الأندلسية، كاستخدام الزخارف الجبسية، وتخطيط البيوت حول أفواج داخلية لتوفير الظل والتهوية.

٨-الفكر، القضاء، والعلم

ساهم الأندلسيون في نشر علوم الشريعة الإسلامية،وعلوم اللغة العربية،وأسسوا مراكز علمية نشطة وزوايا لتحفيظ القرآن الكريم ،وتعليم القراءة والكتابة ،وحفظ المتون،وتدريس الفقه المالكي وعلوم اللغة العربية،وآدابها، وربطوا الصحراء الكبرى بالحواضر العلمية في المغرب الإسلامي.

كما اعتنوا بالقضاء والتوثيق،وتولى العديد من الأندلسيين مناصب القضاء والإفتاء نظراً لتبحرهم في العلوم الشرعية،واللغة العربية، مما أرسى تقاليد إدارية وقضائية صارمة لا تزال محفوظة في وثائق ومخطوطات بعض العائلات الصحراوية.

٩-العادات الاجتماعية واللغوية؛حيث تأقلم الأندلسيون مع البيئة،وانصهروا مع القبائل الصحراوية، وأسهموا في إرساء تقاليد اجتماعية تعزز قيم التكافل والنبل

والكرم والإيثار، فضلاً عن تأثيرهم في فنون الطبخ التي دمجت البهارات والطرق الأندلسية مع المكونات الصحراوية.

وحافظت بعض الأسروالعشائر،مثل ذرية الإمام والسلطان نافع الأنصاري الخزرجي على طريقة التمويه باستخدام الألقاب؛مراعاة للجانب الأمني؛حيث لا تزال بعض العائلات التي حكمت الأندلس محلا للبحث والمتابعة والاستئصال من قبل الإفرنج الكاثوليك المتطرفين،ولا تزال بعض العائلات في مدن شمال وغرب إفريقيا تحتفظ بألقاب وكنى تعود لأصول أندلسية مورسكية إلى اليوم.

١٠-نقل الكتب والمخطوطات أثناء رحلة الهجرة والسفر والتنقل بين البلاد والمدن وحفظها في مواسم الأمطار في أحراز آمنة.

١١-فتح مدارس الكتاتيب،والمحاضر،والتدريس؛لأنها ليست من عادات المنطقة ولا من عادات البدو،وحتما هي ثقافة قدموا بها من الأندلس.

١٢-تنوين الأسماء محمدٌ،أو ختم بعضها بواو ونون بصيغة جمع المذكر السالم،وقال عبد السلام محمد هارون:" وأهل المغرب والأندلس يتسمون بزيدون وحَمْدون وخلدون وفتحون ورحمون وحسُّون وحفصون وسمحون، وتعليل هذه التسمية قد يرجع إلى إرادة التفخيم بصيغة كصيغة الجمع،وقيل أيضا: إن اللغة الإسبانية تضيف إلى أواخر الأسماء لفظ (اون) للتعظيم وقد نقل ذلك العرب عن الأسبان حين اتصلوا بهم في الأندلس فقالوا في زيد (زيدون) وفي وهب (وهبون) وفي عيش (عيشون) على سبيل التكبير،والتفخيم،والتعظيم (١)

١٣-وضع الأبواب من ملاحف قماشية ، وهي ثقافة منقولة من الأندلس أيام محاكم التفتيش لسهولة اقتحام أي منزل موريسكي في أي وقت ،فمنعوا من أبواب الحديد

---

(١) كناشة النوادر،للدكتور عبدالسلام هارون، ج ٢ ص ٢٥ .

والخشب، واستمروا عليها حتى بعد الأمن وتوفر الحديد والخشب ،ونسي السبب لاحقا .

١٤-ختم الحزب اليومي الذي يكتبه المعلم للطالب من القرآن الكريم بشعار النجمة المغربية.

١٥-وجود مصطلحات كثيرة متداولة عندنا كألغاز،أو أمثال سائرة، وقل من يفهمها من غير بعض كبار السن؛لأنها تابعة لبيئتها الأولى،بعيدا عن منطقتنا، بينما هي معروفة جدا في الجزائر وتونس والمغرب،لكنها ظلت متداولة في الأمثال والأحاديث الشعبية،وربما اكتسب بعضها دلالة مختلفة،ومنها :

الشعانبة-تندوف-الفلاقة-أهل الساحل-أهل القبلة-الحنبل للسجادة-تبردى للبردة

-تاسجرت للولاعة-تاغرجا للخُرْج -الشكوة للوعاء من جلد...إلخ

١٦-أحفاد الأندلسيين لا يجلسون على الأرض ،مما يدل على أنهم طارئون على البيئة البدوية،ومن عرف البدو علم أن جلوسهم على الأرض عادة متأصلة فيهم،ولايرون فيها غضاضة بعكس المجتمعات المدنية.

١٧-الأندلسيون لا يأكلون بأيديهم،وإنما بالملاعق فقط، وهذه لها دلالة واضحة على أنهم قادمون من حضارة مدنية.

١٨-لا يشربون عقب بعضهم في إناء واحد،وغسل كاسات الشاي برهان ذلك وغيره،بينما غسل الماعون بعد شرب الشخص منه منافي للمروءة ويفهم إساءة في المجتمعات البدوية الصرفة وقد يتطيرون منه!

١٩-جميع الأدوات التي يصنعها صناع آل نافع الأنصاري ،تختلف كليا عن مثيلاتها مما يصنعه نظراؤهم من قبائل كل تماشق،أو بني حسان،فتجد صناعة صنّاعنا (الحدادون) متميزة وأقرب لمحاكاة الأدوات الحديثة،وليس ذلك صدفة!

وهذه الملامح والمؤشرات والدلالات على تأثير الأندلسيين الذين استقروا في الصحراء الكبرى ،على حياة سكان الصحراء الكبرى،ليست ملحوظة،وليست حاضرة في العقل الجمعي للصحراويين،ولايرصدها،ويدركها غير قلة من نخبة أهل العلم،الذين لديهم أفق واسع،ويستحضرون مراحل الرحلة،وربط مراحلها ببعضها،وقد تجد عامة الناس،قد نسوا تماما بعض الأسباب لبعض الظواهر الاجتماعية،والمسميات والعادات ،وهو ما لا ينفي وجودها،وصحتها بعد الدراسة،وقليل التأمل...الخ

وربما تغيرت دلالاتها عندنا واكتسبت دلالات أخرى، بينما هي اليوم في الدول المغاربية تحتفظ بنفس دلالاتها الأصلية.